وقرأ البزي عن ابن كثير (من فوقه سحاب ظلمات) بترك بالتنوين في (سحاب) وبإضافته إلى (ظلمات) . وقرأه قنبل عن ابن كثير برفع (سحاب) منونا وبجر (ظلمات) على البدل من قوله (أو كظلمات) .

وقوله (لم يكد يراها) هو من قبيل قوله (فذبحوها وما كادوا يفعلون) . وقد تقدم وجه هذا الاستعمال في سورة البقرة وما فيه من قصة بيت ذي الرمة .

وجملة (ومن لم يجعل ا له نورا فما له من نور) تذييل للتمثيل أي هم باءوا بالخيبة فيما ابتغوا مما عملوا وقد حفهم الضلال الشديد فيما عملوا حتى عدموا فائدته لأن ا لم يخلق في قلوبهم الهدى حين لم يوفقهم إلى الإيمان أي أن ا جبلهم غير قابلين للهدى فلم يجعل لهم قبوله في قلوبهم فلا يحل بها شيء من الهدى .

وفيه تنبيه على أن ا تعالى متصرف بالإعطاء والمنع على حسب إرادته وحكمته وما سبق من نظام تدبيره .

وهذا التمثيل صالح لاعتبار التفريق في تشبيه أجزاء الهيئة المشبهة بأجزاء الهيئة المشبه بها ؛ فالضلالات تشبه الظلمات والأعمال التي اقتحمها الكافر لقصد التقرب بها تشبه البحر وما يخالط أعماله الحسنة من الأعمال الباطلة كالبحيرة والسائبة يشبه الموج في تخليطه العمل الحسن وتخ فيه وهو الموج الأول . وما يرد على ذلك من أعمال الكفر كالذبح للأصنام يشبه الموج الغامر الآتي على جميع ذلك بالتخلل والإفساد وهو الموج الثاني وما يحف اعتقاده من الحيرة في تمييز الحسن من العبث ومن القبيح يشبه السحاب الذي يغشى ما بقي في السماء من بصيص أنوار النجوم وتطلبه الانتفاع من عمله يشبه إخراج الماخر يده لإصلاح أمر سفينته أو تناول ما يحتاجه فلا يرى يده بله الشيء الذي يريد تناوله .

(ألم تر أن ا يسبح له من في السماوات والأرض والطير صفت كل قد علم صلاته وتسبيحه وا عليم بما يفعلون [41]) E A أعقب تمثيل ضلال أهل الضلالة وكيف حرمهم ا الهدى في قوله (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة) إلى قوله (ومن لم يجعل ا له نورا فما له من نور) بطلب النظر والاعتبار كيف هدى ا تعالى كثيرا من أهل السماوات والأرض إلى تنزيه ا المقتضي الإيمان به وحده وبما ألهم الطير إلى أصواتها المعربة عن بهجتها بنعمة وجودها ورزقها الناشئين عن إمداد ا إياها بهما فكانت أصواتها دلائل حال على تسبيح ا وتنزيهه عن الشريك فأصواتها تسبيح بلسان الحال .

والجملة استئناف ابتدائي ومناسبته ما عملت .

وجملة (كل قد علم صلاته وتسبيحه) استئناف ثان وهو من تمام العبرة إذ أودع ا في جميع أولئك ما به ملازمتهم لما فطروا عليه من تعظيم ا وتنزيهه .

فتسبيح العقلاء حقيقة . وتسبيح الطير مجاز مرسل في الدلالة على التنزيه . وفيه استعمال لفظ التسبيح في حقيقته ومجازه ولذلك خولف بينهما في الجملة الثانية فعبر بالصلاة والتسبيح مراعاة لاختلاف حال الفريقين : فريق العقلاء وفريق الطير وإن جمعتهما كلمة (كل) فأطلق على تسبيح العقلاء اسم الصلاة لأنه تسبيح حقيقي . فالمراد بالصلاة الدعاء وهو من خصائص العقلاء وليس في أحوال الطير اسم التسبيح لأنه يطلق مجازا على الدلالة بالصوت بعلاقة الإطلاق وذلك على التوزيع ؛ ولولا إرادة ذلك لقيل : كل قد علم تسبيحه أو كل قد علم صلاته .

والخطاب في قوله (ألم تر) للنبي صلى ا عليه وسلم . والمراد من يبلغ إليه أو الخطاب لغير معين فيعم كل مخاطب كما هو الشأن في أمثاله .

والاستفهام مستعمل كناية عن التعجيب من حال فريق المشركين الذين هم من أصحاب العقول ومع ذلك قد حرموا الهدى لما لم يجعله ا فيهم . وقد جعل الهدى في العجماوات إذ جبلها على إدراك أثر نعمة الوجود والرزق . وهذا في معنى قوله تعالى (إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) .

والصافات : من صفات الطير : يراد به صفهن أجنحتهن في الهواء حين الطيران . وتخصيص الطير بالذكر من بين المخلوقات للمقابلة بين مخلوقات الأرض والسماء بذكر مخلوقات في الجو بين السماء والأرض ولذلك قيدت ب (صافات) .

وفعل (علم) مراد به المعرفة لظهور الفرق بين علم العقلاء بصلاتهم وعلم الطير بتسبيحها فإن الثاني مجرد شعور وقصد للعمل